

نكسة في دار العلوم !

للأستاذ الطاهر أحمد مكي

للفظ معناه حين يكون في القاموس معانيها المعناه إذا ورد في أساليب الفلاسفة ، فكان الخلط والاضطراب والتمتر ، ملحوظا لكل من يطالع النتاج المعاصر في الفلسفة أو التاريخ أو الشريعة ، وغيرها من التراث العربي القديم ، إذا استثنينا القليل !

ولم يكن هذا الخلط وقفا على الثقافة التي تبعد عن اللغة قليلا أو كثيرا ، بل امتد أثره حتى إلى اللغة نفسها ، ذلك أن تقدم الإنسانية وسع من إمكانات الدارسين والمؤلفين ، وانتشار الطباعة والتخصص جعل مهمتهم سهلة لينة ، وتقدم منهاج البحث العلمي والاستماعة بالمقارنة جهل من الممكن ملء الفجوات التي تبدو بين معالم الثقافة القديمة ، والاهتداء إلى الأصول المجهولة ، والتي كانت تعرض القدماء ، فيملونها بالفرض ، أو يصونها بالخيال ، أو ينحرفون بها إلى الخرافة !

ومسيرة لهذا المنطق ، بدا أن دارس العربية لكي يستفيد منها ويتبين حقائقها ، وينير قضاياها ، عليه أن يكون عارفا ما استطاع بأخواتها من الفصائل السامية ، كالعبرية والسريانية واليمنية القديمة والحبشية ، وما جاورها من لغات أخرى ، كالفارسية والأوربية والتركية ، في حدود القدرة والتخصص .

روعى هذا النهج عندما أنشئت كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة ، ودعا إليه الدكتور طه حسين دار العلوم العليا في حرارة وقوة عام ١٩٣٥ ، عارضا عليها أن تضم إلى الجامعة ، على أن تحتفظ باسمها التاريخي المجيد ، لتكون معهدا للغة العربية واللغات الشرقية ، ولم يقف بدعوته عند هذا الحد ، بل اقترح أن تبدأ العناية بهذه اللغات من التعليم الثانوي ، لمن يريدون أن يتخصصوا فيها ، لكي تكون دراستهم منتجة مثمرة .

ولم يتبع لدعوة الدكتور طه حسين أن تجد سميا إذ ذاك ، فطواها على مفضض وإن لم يأس منها ، ومضى يهيئ لها الأذهان حتى اختمرت ، وأذن لها أن تؤتى أكلها عام ١٩٤٦ ، حين ضمنت دار العلوم إلى جامعة القاهرة ، لتتفع بالنهج الجامعي وحرته ، ولتأخذ في ركب الحضارة وجهة جديدة ، توائم التطور الثقافي الذي انتهى إليه العالم ومصر عقب الحرب العالمية الأخيرة .

أجل ، كانت دار العلوم المدرسة قد أدت رسالتها في تنقية الفصحى من أوشاب المعامية ، ونحور الألسنة من اللكنة الأعجمية ، وفي إعداد المدرس الصالح لأدائها ، والكتاب الطيب اللأم للقراءة ، وفي تطوير اللغة لتصبح مرآة ناصعة ، تنعكس

كان المستشرقون أول من عنى بالبحث في اللغة العربية وأخواتها من اللغات السامية في مطلع العصر الحديث ، دراسة منتجة مثمرة ، تعتمد على العقل والفكر والاستنباط ، وتتخذ مادة درسها من الكتب والآثار والمقارنة ، ومن ثم بدأ علماءهم يجوبون الأقطار العربية وما اتصل بها قديما من أمم ، وذهب كثيرون منهم شهداء العلم ، اغتالهم الجهال ، أو أضناهم العمل ، أو أفضناهم المرض ، أو فتكت بهم الأوبئة !

وقد انتهت هذه البحوث إلى أن اللغات السامية نشأت من أصل واحد ^(١) ، ثم تنوعت بفعل البيئة أو تطورت بمامل الزمن فنشأ ما بينها من تفاوت لا يمس أصولها ، ولا يقطع ما بينها من رحم ، وأن على الباحث في واحدة منها ، أن يستهدى أخواتها الأخريات فلما تقدمت الحياة العقلية في مصر ، رأى الذين يهمهم أمر الثقافة العربية ، أن مجال التقدم والابتكار فيها ، والكشف عن كنوزها ، وتبيان غامضها ، مازال ضيقا ، وأن الشرق في تفهمه لآثاره عالة على الغرب ، يتابع خطواته ، ويتلص طرائقه ، ويتلقى ما انتهى إليه من نتائج قضايا مسلمة !

وكان واضحا أن نقطة الضعف في التفكير العربي المعاصر ، أن الذين يتصدون للبحث في شتى أنواع المعارف القديمة ، يجملون اللغة العربية ولا يلمون بدقائقها ، مما ينتج عنه سوء فهم لتلك الثقافات ، أو خطأ في الإلام بقضاياها ، وكان مخجلا أن يدرس التاريخ الإسلامي أو يؤلف فيه من لا يعرف أصول اللغة وتاريخها ومادته جلها نصوص لغوية وأدبية ، أو يتصدى للفلسفة الإسلامية شارحا أو مؤرخا ، وهو يجمل التطور الذي أصاب اللغة ، فجعل

(١) توصل إلى هذا الرأي العلامة ابن حزم الأندلسي ، فقال في كتابه « الإحكام في أصول الأحكام » : « إن الذي وقتنا عليه وعلناه قينا أن السريانية والعبرية والعربية التي هي لغة مضر وريمية لالغة حمر ، لغة واحدة تبدلت ببهل مسالك أهلها » ثم تابع كلامه في تليل رائع ، مما يبد منه بحق واضع علم « فقه اللغة » الحديث ، ثم تلاه بعد ذلك ، علماء اليهود الذين ورنوا الحضارة العربية في الأندلس ، ولكن الغلام الذي عم إسبانيا عقب إجلاله العرب عنها أوقف تقدم هذه البحوث ، حتى بشت في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين .

اللغة العربية في وزارة المعارف ، يشكون ضعف خريجي دار العلوم الكافية في النحو والصرف ، وعزا ذلك إلى مزاحمة اللغات السامية والشرقية فدعا إلى إلغائهما ، بل وارتأى الحاجة إلى دراسة التاريخ والفلسفة أيضا ففكر في استبدالها !

لن أرفع عن زملائي وأندادى تهمة النصف ، فنحن ، مازلنا طلابا رغم التخرج . ولن نزعم لأنفسنا العلم أبدا ، فنحن في أول الطريق ومن سار على الدرب وصل . ولن نقول للمعيد إن التدريس لتلاميذ الابتدائي والثانوي لا يحتاج إلى مزيد علم ، ولا يصلح مقياسا لقوة أو ضعف ، وإن للسائل موضع الخلاف لاتعدو « همزة الوصل والقطع » والإعجام ، واختلاف النظرة إلى الكلمة الواحدة ، حين تكون العامية خفيفة سهلة ، ومثيلتها العربية ثقيلة موحشة ... لن نقول له إن المدارس اليوم موحج بأناس حظهم من الثقافة متواضع ، وجهدهم في التحصيل ضعيف ، ونظرتهم إلى التعليم مادية ، وإيمانهم بالرسالة معدوم ، وإن خريجي دار العلوم وسط هذه الأخطا ، قلة لا يسمع لها صوت ، ومواهب لا يترك لها مجال !

لن نقول له شيئا من ذلك كله ، لأن رسالة دار العلوم الجامعية يأتي فيها التدريس تبعا لأصالة كما يقول الأصوليون ، وإعما رسالتها أن تنير للطالب الطريق ... طريق الكشف عن مجاهل الحضارة والثقافة ، ثم نقول له سر على بركة الله ، ليكتشف ويتأمل ويقنن ، مشكورا أخطأ أم أصاب ، ونحن جد سعداء ، لأن دار العلوم الجامعية أمكننا أكثر من مشعل . وأنارت أمام عقولنا أكثر من طريق !

لقد جارينا المعيد فيما ارتآه من أننا ضغفاء في النحو ، لا تقريرا للواقع بل إسهما في حل المشكلة ، فليسمح لنا أن نخالفه أشد المخالفة ، في أن مبعث ذلك هو اللغات السامية أو الشرقية أو التاريخ أو الشريعة ، أو تراحم مختلف المواد ، ذلك أن واحدا من هذه العلوم ، ليس جديدا في تقريره ، وإن تطور في مناجه ، وأن محاضرات اللغة في نحوها وأدبها وقهها لم تنزل عن المستوى الذي أنشئت عليه منذ أن كانت دار العلوم ، بل إن منها ما استحدث كالأدب المقارن ، أو خص بعناية في الوقت والدروس والنهج كفقته اللغوية ، وإن الذين يطاولنا بهم في النحو من أساتذتنا في الدار وخارجها ، كان نصيبهم من الدراسات السامية مضاعفا ، فدرسوا العبرية والسريانية ، على حين يدرسون طلاب

عليها مظاهر الرق المتعددة ، وتسمع الفاظها للتعبير عن أسمى الشاعر والأفكار وبقي الشق الآخر من الرسالة ، وهو البحث والتقصي والمعكوف على القديم لدرسه ونقده وتمييزه ، وتبج مساربه ومحاربه ، بمد أن هيئت الوسائل وأكلت الأداة ! ومن ثم شفع ضمها إلى الجامعة لإساح المجال فيها للدراسات السامية والشرقية على الخيار بين واحدة منهما ، وأحسن الطلاب أن شيئا جديدا من الثقافة بدأ يأخذ طريقه إلى أذهانهم ، ليساعدهم في تفهم كثير من المشكلات ، كانت تبدو أمامهم معقدة غير واضحة ، وكانت هذه العلوم أداة ليصبح عندنا نحو مقارن يرفع الستر عن قصة النحو العربي ، متى نشأت ، وكيف ، وعلى يد من؟ ... ولأى المؤثرات تعرضت . وقل الأمر نفسه عن البلاغة وفقه اللغة ، وعن الأدب أيضا .

ولكن البلاغة والنحو والصرف وفقه اللغة والأدب ، ليست هي كل التراث الإسلامي ، فهناك الفلسفة ، وهناك التاريخ ، وهناك الشريعة ، وما يتصل بهذه العلوم أو يتفرع عنها ، وهي علوم محور التبريز فيها أن يكون المدارس لها عارفا باللغة العربية أولا . ولد هذا الفراغ وتهيئة المجال أمام الراغبين في هذا النوع من الثقافة الإسلامية ، رؤى أن تتولاه دار العلوم تبعا ، لتحرير بحثه ومادته من سلطان المستشرقين بعد أن ظل وفقا عليهم ، مع الانتفاع بنهجهم ومذهبهم في التعميد والاستنتاج ، على أن يتخضع الطلاب في واحدة منهما ؛ لتكون إفادتهم كاملة ، فكانت شعب التاريخ والفلسفة والشريعة ، يجوار الثقافة العربية الأخرى . ولتثبيت هذا المعنى في أذهان الطلاب وتقويته ، وليأخذ صينته القانونية ، رؤى أن تكون برامتهم إذا تخرجوا « الليسانس في اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية » .

* * *

ومضى الركب في طريقه ...

ثم أذيع أن عميد كلية دار العلوم الأستاذ إبراهيم اللبان ، دعا مجلس جامعة القاهرة ، إلى تدعيم « معهد اللغات الشرقية » التابع لكلية الآداب ، يجعله مستقلا على أن يكون للدراسات الشرقية كلها ، أدبا ولغة ، تاريخا وحضارة ، واستبشر الطلاب والدارسون من وراء دعوته خيرا حين تلقفوها من أفواه المصحف ولكن ... سرعان ما أمجلتهم الحقيقة ، فأخبت فيهم الأمل ، وأغاضت البشري ، ذلك أن المعيد سبب دعوته ، بأن مفتشى

لقد استقبلت دار العلوم حياتها الجامعية من سبع سنوات مزهوة بماضيها ، مؤملة في غدها ، مقدره لرسالتها ، وكان اندماجها في الحياة الجامعية موضع فخار وإجلال ، وتطورها السريع موضع تقدير وإكبار ، رعت الأفاضل من أبنائها فاستردتهم معيدين ، وأرسلت بهم وراء البحار دارسين وباحثين ، وهيات لهم من حياتهم العلمية رشدا ...

نم ، ماذا أقول ! ... إن الحسرات لترعى قلبي ، وإن الحزن لينشى جوانحي ، ويكاد الألم يقتلع من عقلي ذكريات علمية عزيزة عليه ، لأن الكلية التي شهدتها زاهرة ناضرة ، واخترت لها في حنايا نفسى أروع الذكريات وأنبأها ، نكصت على عقبيها ، فتراجعت القهقري ، لتنتوى على نفسها بعيدا عن الحياة والناس ، وأخشى أن يفوتها الركب ...

لم يعد للناهين من أبنائها فيها نصيب ، فتوقفت عن تعيين المعيدين ، وكل جريمتهم أنهم صغار السن شباب ، وتوقفت عن إرسال البعثات ، لأن سياسة « ليس في الإمكان أحسن مما كان » عادت تظلم رأسها من جديد !

ثم أسلمت مكتبتها ، مكتبة أعرق كلية تدرس العربية في الشرق - وللجامعة مكتبة - وبها كثير من النفائس والذخائر ، إلى أمين كل مؤهلته أنه يحمل الشهادة الابتدائية ، وفي بقية الكليات الأخرى ، تنال المكتبة أهظم رعاية وأبلغ اهتمام ، ويشترط في أمينها من المؤهلات ما يشترط في هيئة التدريس

وبعد ... إني أناشد الذين في دار العلوم - وأنا أعرف من هم علما وفضلا - ضماؤهم وعقولهم ، أناشد فيهم تاريخ دار العلوم وحاضرها وغدها ... إذا لم تستطيعوا السير إلى الأمام فلا تردوا لا تنقصوا مواد الدراسة ، بل زيدوها إذا أحببتهم ، أنشئوا معهد الدراسات الشرقية ، لكن لا تمسوا هذه الدراسة في دار العلوم ، خرجوا شبانا يدرسون ويفهمون ، أسحاب ثقافة مشرعة تسمو بهم عن المحلية ، وتخلق بهم في أجواء عالية فسيحة ، إيان توجهمم يأتوا بخير كثير ...

إني أناشدكم بكل مقدماتها ، ألا تمودوا بها « مصنعا » للمدرسين من جديد !

الظاهر احمد علي

اليوم الأولى وحدها ، ولم عنتمهم ذلك ، إن لم يدفهم ، إلى أن يبرزوا في الميدان ، وأن يسدوا إلى الفصحى خدمات جلي !
لقد توسعت دار العلوم في دراسة هذه المواد ، ولكن هذا التوسع لم يكن على حساب اللغة أو قواعدها ، وإنما كان على حساب علوم يست على الدوار لدوافع استثمارية ، كان على حساب الطبيعة والكيمياء والهيئة والصحة والرسم والحساب والجبر والهندسة والجغرافيا ، والأشغال اليدوية (! !) وهي علوم كان مؤسفا ومخجلا أن تدرس في معهد عال يمد التخصصيين في اللغة العربية ، وأن يشغل بها الطلاب ، على حين أن مكانها في المرحلتين الابتدائية والثانوية ! . ويستطيع المعيد أن يراجع برامج دار العلوم منذ عام ١٨٧٢ حتى اليوم ، فلن يجد حيفا من اللغة أو علما عدا عليها

حتى ولو جاريناها في دعوته ونظرت له دار العلوم ، وتفهمه لرسالتها على أنها ترويد المدارس بمدد صالح من المعلمين « فإن معلم اللغة العربية محتاج أشد الحاجة إلى أن يكون قادرا على أن يفهم الصلة بين مادة اللغة العربية وأصولها السامية الأولى ، فيجب أن يدرس اللغات السامية درسا حسنا ، وأن يتقن بعض اللغات الأجنبية الحديثة ، وبعض اللغات الشرقية الإسلامية الحية ، في شئ من التنوع والتخيير بين هذه المواد »^(٢) ، « فدراسة اللغات السامية دراسة قران ، أصبحت الآن ضرورية لكل من يريد أن يلم بتاريخ اللغة العربية إللما يشمل نشأتها وعوامل انتشارها ، واللغات التي أثرت فيها وتأثرت بها ، ولكل من يريد أن يدرس فقه اللغة عامة ، وفقه اللغة العربية بوجه خاص ، دراسة علمية دقيقة . إن طالب دار العلوم في حاجة إلى التزود بمعلومات كافية عن بعض اللغات السامية التي لها علاقة وثيقة باللغة العربية ، أسوة بما هو متبع في أوروبا ، حيث تدرس اللسان الإغريقية واللاتينية لاتصال اللغات الأوروبية الحديثة بهما »^(٣)

(٢) دكتور طه حسين . مستقبل الثقافة في مصر من ٣٨٨ طبعة سنة ١٩٣٨

(٣) من تقرير للأستاذ حامد عبد القادر أستاذ اللغات السامية والشرقية وفقه اللغة سابقا بدار العلوم ، ومدير اللغة العربية بوزارة المعارف الآن ، والدكتور إبراهيم أمين أستاذ اللغات السامية بكلية دار العلوم الآن وقد كتبه في ١٩٤٦ / ٦ / ٤